# مقدمة

## بقلم عباس محمود العقاد

كان عبد الرحمن الجبرتي مؤرخ عصره غير مدافع ، وكانت حياته وحياة أسرته تاريخا مستحقا لأن يكتب ويحفظ ، لما اشتمل عليه من عظات الحوادث وغرائب المصادفات

كانت أسرته حبشية هاجرت الى مصر وتمكنت فيها ، فلم يمض عليها غير قليل حتى اشتهرت بالعلم والوجاهة ، وعرفها المشتغلون بالدنيا والدين

وكان من عجائب ولعها بالعلم أنها جمعت فيه بين أرصاد الأرض وأرصاد السماء ، فكان حسن الجبرتي — أبو عبد الرحمن — فقيها أديبا فلكيا ملما بالتاريخ والرياضة ، واقتدى به عبد الرحمن في جميع هذه العلوم

وكان تحرير الموازين وتثبيت المواقيت والمواعيد عادة متأصلة فيهم أو طبيعة في الدم كما يقال ، فتجرد حسن الجبرتي للفحص عن غش الموازين وخلل التقاويم من غير تكليف ولا فائدة تعود عليه ، الا كراهة الغش وحب الانصاف ، وكذلك كان دأبهم في موازين الاقدار ومعايير الوقائع والاخبار .

وقد تأثلت لهم في القاهرة قصور عامرة ، يقصدها طلاب العلوم فيتعلمون ويأكلون ويأخذون من فيض المونة والاحسان ما يجود به أصحابها الكرام ، وقد كان احسانهم دائم الفيض لا ينقطع في أوان ، وكانوا الى السماح بالطعام والكساء والمال ، يفتحون خزانات الكتب النادرة لمن شاء أن يطالع عليها وينقل عنها ، ومنها ما كان خليقا أن يعتز به مالكه ، لأنه نادر في المكتبات أو من هدايا السلاطين والامراء

وولد عبد الرحمن فلم يستقبله أبوه بالسرور ، لأنه ولد له من سرية

غير ثيرة لديه ، وبشاء القدر ان يكون عبد الرحمن هذا هو الولد الوحيد الذى عاش له من نحو اربعين ولدا ماتوا فى طفولتهم أو صباهم ، ولولاه لما ذكر له اسم بعد حياته أو لكان اسمه على الالسن التى تسمع به نكرة من النكرات .

وتكررت فى عبدالرحمن الجبرتى مأساة الفلكى القديم اراتستين الذى رصد الشمس فى زواياها المختلفة وعرف من هذا الرصد محيط الارض وقياس الكرة كلها، ثم مات ضريرا وفضل الموت على الحياة

كذلك مات الجبرتى وهو ضرير، وصح فيه حقا ما قاله مجازا « انه يجمع الشوارد فى الظلام »

وتتم غرائب المصادفات فى حياة هذا العالم العامل فيذكر اليوم بتاريخه الذى سيق الى كتابته من طريق المصادفة ، فلولا «المرتضى الزبيدى » صاحب تاج العروس لكان من الجائز أن يعيش الجبرتى ويموت ولم يكتب حرفا من تاريخه، ولكن العالم اللغوى الجليل — أستاذه وزميله فى التتلمذ على أبيه — توسل اليه أن يعينه على ترجمة الاعلام فى زمانه وقبل زمانه ، فجمع ما اتفق له من هذه الاعلام فى « طبقات » كما كان يسميها — اى جزازات — ثم نقحها واضاف اليها ، وتعود من ثم ان يسجل اليوميات والشهريات والسنويات ، ومنها تألف تاريخه الكبير

ولقد كان الرجل أمينا صادقا فيما كتب وما سمع ، وبلغ من صدقه أنه كان يصف التجربة الكيمية وهو لا يدرى شيئا فى الكيمياء . فيعرف القراء اليوم حقيقة هذه التجربة بما ذكره من الوان المواد ومن تحول السائل والجامد والغاز المنطلق بين السيولة والجمود . وتواضع فى أمانته فقال فى وصف تاريخه أنه جاء «على

حسب التيسير » وهو فى الواقع أوفى سجل كان فى الوسع أن يتناوله التمحيص فى تلك الأيام .

ويؤخذ على هذا التاريخ عيب واحد لا شك فيه ، وهو تفرقه وانقطاعه من فترة الى فترة على غير نظام مرسوم ، وقد كاد أن يندثر لامتناع طبعه ونشره من عهد محمد على الكبير الى عهد الخديو توفيق فعهد الخديو عباس ، ثم صدر منه الجزءان الثالث والرابع قبل الجزئين الاول والثانى ، ثم تداولته الايدى كاملا وقيل غير كامل ، ولكنه فى هذه الطبعة التى بين أيدى القراء «كامل فى منهاجه» مستجمع لكل ما ينتظم فى هذا الباب كما أراد ملخصه العالم المحقق الاستاذ ابراهيم جلال بك ، فانما أراد مؤرخنا الفاضل أن يخرج لقراء هذا العصر مائدة حافلة من مخزن غلال وازواد . فجاءت هذه المائدة غذاء صحيحا يعفى من يتناوله من عناء التحصيل والتحضير ، ويخرج له صنوف الحبوب من بيدرها طعاما هنيئا شهى المذاق

ولم يكن فى عصرنا من هو أقدر على هذه المهمة من العلامة جلال بك ، فان اختصاصه بتاريخ مصر العربى ، وبتاريخ مصر من عهد الفاطميين على الخصوص الى هذه الايام ، خليق أن ييسر له مهمته العسيرة ويهيىء له الاحاطة بمواضع التلخيص والترتيب ، مع ما وهبه الله من ملكة القصص ودراسة الشخصيات التاريخية ، ومن حظ قراء هذا العصر أن يتسنى لهم من أسباب الاطلاع على تاريخ الجبرتى ما لم يكن ميسورا لآبائهم وأجدادهم . وسيحمدون هذا الحظ من صفحات الكتاب الاولى ، ويضاعفون هذا الحمد بعد الفراغ من جميع صفحاته ، وكلها جدير بالمراجعة والرجوع اليه حينا بعد حين . .

**عباس محمود العقاد**